... ثم جاء الربيع

للكاتب الانجليزى دوروثى بلاك

ترجمة الأستاذ فؤاد الطوخى

كان زواج مستر بوينت من هلدا موضوع حديث القوم ، ولقد تضاربت الأقوال فى هذا الشأن لأن رجلا فى مثل ثروته ومقامه كان يستطيع أن يتزوج بأحسن منها ، لأن هلدا لم تكن إلا موسيقية فى إحدى الفرق . وصحيح أنها كانت جميلة ولكن جمالها لا يكفى .. أما هى فإنها كانت قانعة بهذا القران لأنه أنقذها من عملها الشاق المضنى القليل الأجر واقد نقلها إلى قصره الفخم الذى يشرف على غابة من شجر الصفصاف ... وكان بعض العمال قد اعتادوا أن يتخذوا فى نهايتها ملجأ يأوون إليه فى الربيع

على أن مستر بوينت لم ينس أن رجلا موسيقياً غريباً ذا شعر طويل لبث ثلاث ليال متتالية يجلس فى الصف الأول بالمسرح ويحدجها بنظرات حادة ، وكانت صغيرة السن تميل إلى كل جميل كالملابس البديعة والأرائك الحريرية والروائح العطرية فأتاها مستر بوينت كنعمة من السماء ، وأنقذها الله من العمل فى المطبخ بالمنازل الريفية القديمة ، حيث كانت تطهى طعامها بيديها — وطالما كانت تنزع إلى الحب

ونظراً لصغر سنها فقد ظنت الحب سهلا ، وتوهمت كعادة الشابات أن الحب ... ما هو إلا كاهن باق بكلمات سحرية فوق رأسها

وكان من عادة الفرقة الموسيقية أن تأتى فى فصل الربيع بعد أن تجرى حركة طلاء وتجديد واستعداد فى المسرح

وكانت زهرة المانوليا تزين حدائق الفلات فى ذلك الفصل

واشترك مستر بوينت فى الحفلات اشتراكا اعتاده لأنه كان يناصر الفن مع أنه لا يتذوق الموسيقى

وكان من الجائز عنده أن يستغرق فى النوم وهو فى قاعة الموسيقى كما ينام فى أي مكان آخر ولكن منظر هلدا الرائع جعله يتنبه إلى موسيقاها .. كان شعرها ناعماً كالحرير الأسود ، وجلدها يحاكى زهرة المانوليا

وهناك كان يجلس فى الصف الأول ذلك الرجل الموسيقى وهو يكاد يلتهمها بعينيه التهاما فلمح ذلك مستر بوينت ودبت فى نفسه عقارب الغيرة ، وهو الذى اعتاد أن يحصل على كل ما يريد بنقوده الكثيرة فتزوجها فى الكنيسة الانجليزية للقديس سنت بارثلميو فى يوم عاصف ... ورحلت الفرقة الموسيقية تنقصها هلدا ، ولكن ماذا جرى لذلك الموسيقى الذى اعتاد أن يجلس فى الصف الأول ؟؟

كان مستر بوينت يجهل ذلك ، ومن المدهش أن هلدا لم تكن تشعر به ، فضلا عن أنها كانت ساذجة لا تعرف المكر ولا تثق بمواهبها الخاصة فى حين قد نالت كل ما كانت تحلم به من مجد وفخار ، فقد غص القصر بألوان الترف والنعيم ... ففوق منضدة ملابسها كان لها تلك القضبان الخزفية التى كثيراً ما رأتها فى نومها الهادئ وأحلامها الجميلة .. ولما أخبرها بقيمتها الغالية — وكان حريصاً على القول بأن كل شىء عنده لا قيمة له — توقفت

أنفاسها وأمست قلقة ، فقالت له :

— وماذا تقول إذا تحطمت ؟

فهز رأسه وقال :

— يمكن أن تعوض

وكان بوينت يعتقد أنه لا شيء في الدنيا لا يمكن تعويضه ، ولا حزن لا يغسله الشراب رقم (٨٧) . ووجهة نظره هذه يصعب على هلدا أن تفهمها لأن الفنانين لا يقدرون الحياة على هذا الوجه . وظهر في الجو شيء جديد فقد كان مستر بوينت يتحدث عن الحركات والنغمات في حين لم يكن يدري شيئاً عن الموسيقى ، ولم يكن في وسعه أن يترنم حتى بأنشودة الملك . جلس على أحد المقاعد وقال لزوجته :

— أسمعيني ياعزيزتي !!

فامتلأت الحجرة بنغمات الموسيقى

— ظريف وجميل جداً ... ولكن أتعرفين أنشودة فيها نغم ؟؟

فوقعت له أخرى

— إنه صوت شجي ما أحلاه ياهلدا . وضرب بقدمه ضربة قوية

وفي المساء غنت له وكان صوت الكمان يزداد عذوبة ورقة ، فنهض مستر بوينت وقال :

— حقا ... إنني لفي شوق لسماع هذا اللحن أسمعيني ثانية ياعزيزتي هلدا .. عزفك جميل حقا

وما لبثت أن أجهشت بالبكاء ، ثم طوحت بالكمان بكل قواها في أحد أركان الحجرة ، أما هو فلم يكن يعرف لذلك سببا .. وكثيرا ما خطر له أنها عرضة للنوبات العصبية ، إذ أنه قد أمدها بكل ما تشتهي نفسها في هذا العالم ، وما كانت الحسارة مقصورة على تحطيم آلاتها الموسيقية ، ولكنها عند ما ألقيت هشمت في طريقها تمثالا لاله الحب ؛ وكان فخما مصنوعا من الخزف ، وقد اشتراه مستر بوينت بثمن غال . التقط حطام التمثال والكمان وقال :

— يمكن تعويضهما

ولما رحل إلى ڤينا لقضاء بعض أعماله اشترى لها كمانا آخر بثمن بخس ، ليحل محل كمانها المحطم ؛ فشكرته ووضعت الكمان في ركن من أركان حجرة نومها . وعلى أثر ذلك .. تمنى عليها أن تسمعه لحنا ، فنظرت إليه بحمق ثم هزت رأسها باحتقار وسكتت

— لقد ماتت الموسيقى ياپوينت ! وعجيب أنك تخاطبني كأن لك إلماماً بالعزف

كانت هلدا قبل زواجها قد تجولت مع فرقتها الموسيقية هنا وهناك واكتسبت شعورا وذوقا خاصا . . . أما اليوم وهي منعمة في القصر بالفراش الوثير والطعام الفاخر وشراب الخمر (٨٧) الجيد فقد أصبحت خشنه . . . ولم يتسع الجمال لمستر بوينت لمبادلتها الشعور ، لأنه لم يكن بينهما انسجام . وكثيرا ما كان يرحل إلى لندن أو باريس أو ڤينا لمباشرة أعماله ، فيغيب عنها أياما

وكثيرا ما أقيمت في هذا القصر ولائم فاخرة فلم يغن ذلك عن كآبتها شيئا

وذات يوم رحل بوينت وبصحبته خادمه وحقائبه في سيارته . فسلكت هلدا مسلكا جديدا ، وبدأت تعيش عيشة أخرى .. أغلقت القصر ورفعت ستائره وأبسطته وطردت جميع الخدم ما عدا مارية وصيفتها الخاصة التي كانت تشاطرها الحزن والأسى . فقد مرت بتجربة قاسية ؛ إذ أحبت بحارا واقترنت به ثم ضرب الدهر بينهما بضربانه ، فأمست لا تعلم من أمره شيئا . واتخذت من حجرة نومها حجرة للجلوس ، ووضعت على إحدى الموائد موقدا للبترول لتعيء الطعام بيديها . كما كانت تفعل

في أيامها السالفة . ومن العجب أنها لم تقترن بمستر بوينت إلا لتتخلص من تلك الحياة التي بدأت تمحن إليها ، وما أحزنها إلا جهله بالموسيقى فأفضى ذلك إلى شعورها بالجمود نحوه .. وكثيرا ما كانت تقول في نفسها ... لقد أشرق ضوء في ظلال حياتي ولكني أطفأته .

ومرت أيام وأيام ومستر بوينت يزداد غنى وثراء. وحل الربيع مرة أخرى وظهر في المسرح عمال بدأوا يشتغلون في تنظيفه وطلائه وترتيبه وإصلاح أدوات الحمام . وشخص مستر بوينت إلى باريس في بعض أعماله .

ثم عاد الصفاح مع قافلته يحتل مكانه المعهود في الغابة بين أشجار الصفصاف ، وفي كل عام كان يأتي عند ما تتفتح الزهور وكان يصطحب في كل مرة كانا، ولم تكن هذا قد رأته من قبل وإنما كانت تطل من النافذة من وقت لآخر على قافلته ، فيروقها ألوان ملابسهم الزاهية الجميلة . وكان وقتئذ مرابطا في الطرف النهائي من الغابة .. ولحرارة الجو انتحى ناحية الندير . وكان يوما مشمسا أزاحت فيه مارية الستار عن نافذة سيدتها وأطلت على مقدمة القافلة فأبصرت نارا تحترق ، ودخانا ينعقد في الجو فيكسب زرقته سوادا . قالت : إنها لوقاحة متناهية ، وهمت باستدعاء مدير الضيعة لولا أنها تذكرت أنه رحل إلى سنت بريك ليشيع جنازة أمه واندفعت هذا نحوها وقالت :

— دعيه إنه لا يؤذي أحدا

— ولكن إذا هبت الريح اندفع الدخان رأسا إلى نافذة سيدتي

— ولكن دخان الخشب لن يقتلني

— ربما كان بحارا، وثق ياسيدتي أن أي امرأة في العالم لم تسلم من أذى أولئك البحارة

ثم نظرت مارية في المرآة فرأت جمالها السريع الذبول ووجهها الشاحب وقالت :

— أخشى أن نكون في خطر ولو من أولئك البحارة

ولم تكن هذا تهتم بأمر القافلة من قبل ولكنها أعارتها بعض الالتفات في هذا الربيع . وذهبت يوما إلى غابة الصفصاف داخل الأحراش . وكانت القافلة مرابطة فوق بساط من الزهر البنفسجي اللون بين ثنايا الأشجار . وانساب بجوارها جدول من الماء . واسترسلت على النافذة سجوف قشيبة . وتطلعت هذا إلى حجرة الصفاح فلم تجد فيها شائبة ، وقد كسا الفراش الممدود في بعض الجوانب لون قرمزي بديع فأدهشها أن يكون ساكنها صفاحا بسيطا . وحارت في أمر ذلك الرجل وماذا عسى أن يكون ولماذا لم يزر تلك البقاع إلا في فصل الربيع .

وأرسل مستر بوينت برقية في يوم الثلاثاء قال فيها إنه سيتخلف في باريس أسبوعا نظرا لسوء حالة الجو.

وقد صدق بوينت فيما قاله عن الجو فقد زمجرت عاصفة في منتصف الليل فأخلت ببعض أجزاء المسرح وشتتت أدوات الحمام فكسرت وارتمت على الأرض كدمى الأطفال ... ونجا اللنش بأعجوبة من الزوبعة ، أما الصليب المثبت على قمة الكنيسة فقد سقط متحطما على الأرض، ولم يصب القصر من الضرر إلا بقليل، وقد قصمت الأشجار الباسقة في الحديقة كأنها كانت تتعارك مع الجن ، وكسرت النافورة المرمرية التي جاء بها مستر بوينت من فينا إلى ثلاث قطع ، وقد نكب الإله فينس الذي كان جالسا على عرشه في قمة النافورة بهزة ألقته على الأرض صريعا، فرقد يندب حظه العاثر وهو لا يصدق ما قد حدث . أما هذا فكانت موقنة بأن كل ما سيصنعه زوجها بمجرد اطلاعه على تلك الخسائر هو أنه يقول:

— يمكن تعويضها

وتصدع سقف الغرفة على أثر ظهور ثقب فى قناة، فبدت أولا صغيرة ثم اتسعت حتى صارت بحجم عجلة السيارة ، فصاحت مارية ، وأخذت تضع تحت هذه الفتحة ما تجمع عندها من أوان :

— يا لله ! ! أيحدث هذا ومدير الضيعة غائباً فى مأتم والدته

سيدتى ... ماذا نصنع بهذا الشلال الفظيع ونحن امرأتان وحيدتان ، وهرعت إلى النافذة لتصب إحدى الأواني الممتلئة بالماء ، ورأت العمال لا يزالون فى مكانهم

— انظرى يا سيدتى إنى سأحضره ، فهو على الأقل رجل ويستطيع الصعود إلى السقف ، أما أنا فلا أستطيع لضخامتى الدخول من الباب الصغير المؤدى إليه وإذا صعدت أنت فان سيدى لن يغفر لى هذا الذنب ... فخرجت تاركة وراءها تعليمات هذا الخاصة بوضع الأوانى تحت هذا الشلال ، وبعد أن رفعت هذا الاناء الرابع وقد فاض بالماء لتاق به من النافذة ... إذا بمارية قد عادت ومعها الصفاح وكان مديد القامة ، يرتدى سروالا من الفانلا وسترة موثوقة المرى حتى عنقه . فلما رأته علمت لأول وهلة أنه لم يكن من طبقة البحارة. وذكرت بما يشبه الحلم أنها قد تعرفه وربما تكون قد صادفته فى بعض أنحاء المدينة من غير أن تعلم شخصيته

وفى تلك الأثناء كانت مارية تطالعه بالحالة وهى بجانبه تشرح له الصدع بكل اهتمام ولو أنه لم يكن سباكا إلا أنه قال :

— أظن أن الصدع هو نتيجة ثقب فى البالوعة وأن فى وسعه إصلاحه لو سمحت له السيدة بالصعود

ثم صعد فوجد قطعاً من الأغصان وبعض الأخشاب المتناثرة التى ساقتها الريح إليه فتناولها وأصلح بها الصدع ، فلما هبط قالت له هلدا :

— أشكرك ألف مرة على ما فعلت .. وأمرت له بزجاجة من السدر . وكانت قد جهزت فى يدها بعض النقود لتعطيها له، ولكنها توقفت خشية ألا يقبلها

وخرجت مارية وفى عينيها نظرات سوداء ، ولما وقع نظر الرجل على الكمان بادر بالتقاطه ومسح الغبار الذى كان عليه وقال :

— لعل سيدتى قد أغفلت العزف

— وكيف عرفت أننى أجيد العزف ؟

ونظرت إليه فى حيرة وقلبها يشتد فى الخفقان وقال : على أن السيدات الأرستقراطيات لا يقتنين كماناً حقيراً ليضعن عليه ريشتهن. فأدارت وجهها وقالت :

— لم أعد أوقع فقد ماتت الموسيقى

ثم أمسك بالكمان مرة أخرى وقال:

— إن الموسيقى نائمة ولن تموت، أتسمحين لى بالعزف . ثم أخذ يوقع لحناً كانت هى توقعه منذ سنوات مضت فى المسرح

— أين سمعت هذا الدور ..؟ لقد عزفته من قبل

— إنه أحد الألحان الوطنية

ورفع الآلة ثانية ثم تغنى بلحن مشج امتزجت عذوبته بأشعة الشمس المشرقة

— أنت لست بصفاح ... وما اسمك ؟ ثم ارتجف قلبها للمرة الثانية ... فقال :

— حقاً أنا صفاح ... ألم تر سيدتى ما عندى من أوان وأوعية ؟ وتلفت فى الحجرة يمنة ويسرة فراقه منها بعض ما فيها من آثار الترف ثم نظر إلى الحديقة فمز عليه أن يرى إله الحب ڤينس مذبوحاً وملقى على الأرض وقال بصوت كأنه يخاطب نفسه ولا يخاطبها

— أى عصفور يمكنه أن يغنى فى القفص ؟

— ومن يدرى ؟

فلما تركته واقفاً هناك خيم الأسى على عينيه وهو يشيعها ، وحامت الخفافيش حول مصباحه ذى الضوء الخافت ، وقال :

— سأعزف لك فى الصباح « أغنية البعث » وهى تؤدى لك رسالة وقد لا تؤدى

وجلست فى نافذتها وأسندت رأسها بيدها ...

وانتصف الليل ... وانبعث من الغابة عزف سحرى أخذ بمجامع قلبها حتى حملها على البكاء قسراً ... وجال بخاطرها أنها ستصبح وحيدة رغم صغر سنها وتذكرت أنها ستصبح وجلة خائفة بين أعضاء فرقتها الموسيقية ؛ وأمامها فى الصيف ذلك الرجل تكاد عيناه تلتهمها التهاماً فنهضت من مكانها وقالت :

— نعم . هذا هو الواقع . لقد عرفت الجواب الآن ، ثم قالت :

— إنى قادمة

ولم تأخذ شيئاً ألبتة معها مما قد أحضره مستر بوينت ، وفى منعطف الطريق قابلت القافلة وقالت :

— قد تذكرت ... تذكرت ... !

وامتطت صهوة الجواد بجواره ثم لفها بغطاء أحمر فسار بهم الركب بين صلصلة أوانيه وأوعيته ، وبين صوت حوافر الجواد وهى تقطع الطريق الوعر ولم يخرج حديثهما عن المسرح وملعب التنس وحفلات الشاى

وها هى ذى قصة خيانة تعرض نفسها لمختلف الأحاديث والتعليقات ... هى قصة فتاة هجرت زوجها الثرى إلى الأبد لتتصل برجل بسيط أحبته

نعم ... فقد جلس الرجال المسكريون وسكان المدينة إلى المصطافين يتحدثون بصوت خافت :

لقد كانت دواعًا غريبة الأطوار .. لقد أخرجها من الفقر إلى الغنى .. ومن فرقة الموسيقى إلى قصره الفخم

وبعد بضعة شهور كانت مارية تحزم بعض مجلات قديمة كان قد أحضرها مستر بوينت معه من فينا ، فاستلفت نظرها مقطوعات شائنة فى الصحائف المصورة وعثرت على صورة شمسية لرجل ذى شعر أسود ضارب إلى البياض وقد انحسر إلى الوراء تاركا مكاناً ناحلاً بينه وبين جبهته المريضة وكان يرتدى ملابس السهرة وعلى ركبته كان

هذا هو دانزليس الذى اعتاد أن يزور كل عام فى زى صفاح ومعه قافلته تلك البقاع التى قضى فيها أوقات صباه وزهرة عمره ، وسوف يعزف أغنية فى بودابست فى الصيف ، وهى من أروع الأناشيد التى تحاكى قلب الطبيعة ... وقد بلغت حرارة ذلك الرجل الموسيقى مبلغاً عظيماً ، فطغت على ما عداها واكتسحت كل شىء أمامها ... فهرعت مارية إلى مستر بوينت وقالت :

— ها هو ذا الرجل بعينه .. إنه ليس بصفاح ياسيدى ... سألتك بالله أن تنظر ... فتناول مستر بوينت الورقة بيده الغليظة وقال :

— أنشودة البعث ... ماسمعت بها قط ، خذيها من وجهى وان تعودى تذكرين اسمها أمامى ثانية .

ولما بلغت الباب استمادها وقال :

— أبلغى هنرى أن يأتينى بشراب (٧٧)

ثم نظر مستر بوينت إلى الحديقة فرأى المقعد الحجرى الذى كانت تجلس عليه هلدا فى الأيام الحارة مشتغلة بإبرتها بجوار نافورة ڤينس وهو التمثال الذى أحضره من ڤينا ... ثم أخرج من غليونه عموداً من الدخان وقال :

— يمكن تعويضها ...

« طنطا » فؤاد الطوخى